﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ٣٣﴾

[الزخرف: 33]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

إيرادُ الرُّدود إثرَ الرُّدود لإبطال شُبَه الكافرين

لمّا ردَّ النَّظمُ الجليلُ على شُبْهة الكافرين، وأنكرَ إنكارَهم بأنْ يكون النَّبيُّ ﷺ هو النّبيَّ محمَّدًا دون أنْ يكون رجلًا عظيمًا مِنَ القريتين، وأجابَ بأنَّ الله تعالى هو مَن يُقسِّم الأرزاق بين عباده: أتبعَهُ بجوابٍ آخَرَ للرَّدِّ على جَهلِهم، فبيَّن ﷺ أنَّ منافعَ الدُّنيا وما فيها مِنَ الطَّيِّبات حقيرةٌ خسيسةٌ عند الله؛ فلا وجهَ لبناء تفضيلِ الغنيِّ على الفقير على ذلك الأساس المُتهافِت[1]، وهذا رجوعٌ إلى التَّمتيع الذي هُم فيه؛ فهو الذي غرَّهُم ودفعَهُم إلى أنْ يُقولوا هذه الشُّبْهة المقيتةَ: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةً﴾: (أمم/أمَّ) أصلٌ يدلُّ على الأصْل والمَرْجِع والجَماعَة والدِّين[2]، وأصلُ هذا البابِ كُلِّه مِنَ القَصْد؛ يقال: أممتُ إليه؛ إذا قَصدته؛ فمعنى الأمَّة في الدِّين: أنَّ مَقصدَهم مقصدٌ واحد[3]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: 92]، أي: دينٌ واحِدٌ، وكُلُّ مَن كان على دينٍ واحدٍ مخالفًا لسائر الأديان: فهو أمَّةٌ على حِدةٍ، وكان إبراهيم ﷺ أُمَّةً[4]، والأُمَّة: كلُّ جماعةٍ يجمعُهم أمرٌ ما؛ إمّا دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحِدٌ، أو مكانٌ واحِدٌ؛ سواءٌ كان ذلك الأمرُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 631.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أم).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (أمم).
(4) الخليل، العين: (أمم).

الجامِعُ تسخيرًا أو اختيارًا؛ وجمعها: أُمَمٌ، وقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: 213]، أي: صنفًا واحدًا، وعلى طريقةٍ واحدةٍ في الضَّلال والكفر، وقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾، أي: على دينٍ مجتمِع[1]، والمراد به في الآية الكريمة الاجتماعُ على الكفر[2].

2) ﴿سُقُفًا﴾: (سقف) أَصْلٌ يدلُّ على ارْتِفاعٍ في إطْلالٍ وانْحِناءٍ؛ مِن ذلك السَّقْف سَقْفُ البيت؛ لِأَنَّهُ عالٍ مُطِلٌّ[3]، والسَّقْفُ: غِماءُ البيتِ، والسَّماءُ سَقفٌ فوق الأرض[4]، وسَقْفُ البيت جَمعُهُ: سُقُفٌ، وجُعِلَت السَّماءُ سَقفًا في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ [الطور: 5]، والسَّقيفَةُ: كلُّ مكانٍ له سقفٌ[5]، وهو "البناء الممتدُّ على جدران البيت المغطِّي فضاءَ البيت"[6]، وهذا هو المرادُ بالسَّقف في الآية.

3) ﴿وَمَعَارِجَ﴾: (عرج) أصلٌ يدلُّ على سموٍّ وارتقاءٍ، والعُروج: الارتقاء، والمَعْرَج: المصعد[7]، يُقال: عَرَجَ في الدَّرَجة والسُّلَّم يَعْرُج عُروجًا؛ إذا ارْتَقى، والمِعْراج: السُّلَّم[8]، ومِنهُ لَيلَةُ المِعْراج؛ والجَمْعُ مَعارج ومَعاريج[9]، وعَرَجَ يعرُجُ عُروجًا، أي: صَعِد، والمَعْرَجُ: المَصْعَد[10]، والعُروجُ: ذهابٌ في صعودٍ، قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [المعارج: 4]، والمعارِجُ: المصاعد[11]، والمراد به في الآية الكريمة: السُّلَّم[12].

4) ﴿يَظْهَرُونَ﴾: (ظهر) أصلٌ يدلُّ على بروز؛ يُقال: ظهرَ الشَّيءُ إذا انكشفَ وبرزَ؛ ولذلك سُمِّي وقتُ الظُّهر والظَّهيرة، وهو أظهَرُ أوقات النَّهار، والأصلُ فيه كلِّه ظهرُ الإنسان[13]، والظَّهْرُ: خلافُ البطْنِ مِن كلِّ شَيْءٍ، والظَّهْرُ مِن الأرضِ: ما غَلُظَ وارْتَفَع،

(1) الراغب، المفردات: (أم).
(2) الواحدي، البسيط: 20/ 37.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سقف).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة: (سقف).
(5) الراغب، المفردات: (سقف).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 206.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرج).
(8) الجوهري، الصحاح: (عرج).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (عرج).
(10) الخليل، العين: (عرج).
(11) الراغب، المفردات: (عرج).
(12) الخفاجي، عنايه القاضي: 7/ 440.
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر).

والبَطْن ما رَقَّ منها واطْمَأنَّ[1]، وظهَرَ على الحائط والجبل والسَّطْح: عَلاه، وصار فوقه، قال تعالى: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾، أي: يعْلون[2]، والمرادُ به في الآية الكريمة: يعْلون سطحَ البيت[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

متاعُ الدُّنيا قليلٌ زائلٌ، وهي هيِّنةٌ ضئيلةٌ عندَ الله تعالى

يُخبر النَّظمُ الجليلُ عن ضَآلةِ الحياةِ الدُّنيا عنده تعالى[4]، تحقيرًا لها، أي: ولولا مخافةُ أن يصير النّاس في مكَّة جماعةً واحدةً على الكفر، يجتمعون عليه، ويرغبون فيه، إذا رأوا الكفّار في سعةٍ مِنَ التَّنعيم: لأعطيتُ الكفّارَ أكثرَ الأسباب المفيدة للتَّنَعُّم؛ ولَجَعلنا لبيوتهم سُقُفًا مِن فضَّةٍ وسلالمَ عليها يصعدون[5]، وذلك لهوانِ الدُّنيا على الله[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواو في مفتتح الآية:

تـأكيـدُ معنى حـقـارة الـدُّنـيـا ومتاعِها

افتتح النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ بالواو في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ وهي عاطِفَةٌ لِما بعدها على قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾؛ والغرضُ مِن العطفِ أنَّ المعطوفَ إبطالٌ ثالثٌ لِما أسَّسوا عليه قولَهُم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[7]، ومعنى الآية المعطوفِ عليها هنا أنَّ رحمة الله – وهي هنا النُّبوَّة، أو اصطفاؤُهُ عبدَهُ محمَّدًا للرِّسالة – خيرٌ مِمّا يجَمعونهُ مِن متاع الدُّنيا، وهذا المعنى يلزمُ منه حقارةُ متاع الدُّنيا؛ وإنْ كان بيوتًا سقفُها مِن فضَّةٍ

(1) الخليل، العين: (ظهر).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظهر).
(3) الواحدي، البسيط: 20/ 38.
(4) الواحدي، البسيط: 20/ 36.
(5) الخازن، لباب التأويل: 4/ 109، وجماعة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 491.
(6) ابن جزي، التسهيل: 2/ 258.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 203.

ومِن معارجَ عليها يظهرون؛ فكان الظّاهرُ غيابَ الواو، لِما بينهما مِن التَّواصل الخفيِّ؛ وهو المُعبَّرُ عنه بكمال الاتِّصال؛ لكِن لمّا كان المعطوفُ دليلًا ثالثًا مستقلًّا، لوجود جديدٍ مِنَ المعنى فيه؛ وهو: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، وترتُّبِ الجواب عليه، مِمّا أنتجَ معنًى مخصوصًا بالآية: تصدَّرَتِ الآيةُ بالواو التي لا يبرَحُها معنى المغايرة؛ احتفالًا واعتدادًا بهذا الدَّليل.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(لولا):

امتنع التَّوسيعُ على الكافرين حتى لا يكون النّاسُ أُمَّةً مُجمِعَةً على الكفر

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالحرف: (لولا) في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ وهي هنا حرفُ امتناعٍ لوجودٍ، فانتفى الثّاني بسبب وجودِ الأوَّل، فانتفى الجوابُ عن الوقوع لأجل وقوع الشَّرط؛ فدلَّ ذلك على أنَّ الله تعالى لم يُرد أن يكون النّاسُ أُمّةً واحدةً في الكفر؛ فلذلكَ لم يوسِّع على الكافرين في عَيشِهم، أي: ولولا كراهةُ أن يرغبَ النّاسُ في الكفر عند رؤيتهم الكفّارَ في سَعةٍ ونعيم وتنَعُّم لِحُبِّهم الدُّنيا، وتوهُّم أنَّ ذلكَ لِفَضيلةٍ: لَجَعَلْنا للكافرين حُطامَ الدُّنيا، ووسَّعنا عليهم معيشتَهم[1].

سِرُّ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل:

إنَّ اللهَ لا يرضى لعباده الكفرَ

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالمصدر المُؤوَّل مِن (أنْ والفعل) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ وذلك لِما في المصدر المؤوَّل مِن دلالةٍ على الزَّمن؛ متأتِّيةٍ مِنَ الفعل، فدلَّ ذلك على تجدُّدِ انتفاء جواب الشَّرط مِنَ الوقوع؛ بسبب تجدُّدِ وقوع الشَّرط؛ فاللهُ تعالى لا يريد على مرِّ الزَّمان أن يكون النّاسُ أُمَّةً واحدةً في الكفر؛ لأنَّ النّاس عِندَهُم قابليَّةٌ لذلك الكونِ؛ إذا تحقَّقَ معنى الجواب؛ مِن تحقُّقِ السَّعة الشَّديدة في النَّعيم لأهل الكفر.

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 243، والتفسير الوسيط، طنطاوي: 13/ 78.

دلالةُ التَّعبيرِ بالنّاس:

أُنـسُ النّـاس بـمَـتـاع الحياة الدُّنيا واجتماعُهم عليها

عَبَّرَ القرآنُ بلفظ النّاس في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ إشارةً إلى قابليَّتهم للحُكم الذي يفترضُه القرآنُ فيهم مِنَ الاجتماع على الكفر؛ افتتانًا بنعيم أهل الكفر؛ فالنّاسُ هنا هم "أهلُ التَّمتُّع بالأموال؛ بما فيهم مِنَ الاضطراب والأُنْسِ بأنفسهم"[1].

بلاغةُ التَّعريف بـ(ال):

مقصودُ الخطابِ المعهودُ مِنَ النّاس في مكَّة

نظَمَ القرآنُ اسمَ النّاس معرَّفًا بأل في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ﴾؛ والمراد بأل الاستغراقُ العرفيُّ، فالمقصود ليس جميعَ البشر، بلِ النّاسُ في مكَّة وجمهورُهم، فيكون التَّعريف للعهد؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ [آل عمران: 173]، ومعنى أن يكون أهلُ مكَّة أُمّةً واحدةً: أنَّهم يكونون متَّحِدين في الثَّراء، والمعنى: (ولولا أن تصيرَ أُمَّةً مِنَ الأمم أهلَ ثروةٍ كلَّهم - وذلك مخالِفٌ لِما قدَّره الله مِن اشتمال كُلِّ بلدٍ وكُلِّ قبيلةٍ وكُلِّ أُمَّةٍ على أغنياءَ ومحاويجَ لإقامة نظام العمران واحتياج بعضِهم لبعضٍ - لَجَعلْنا مَن يكفرُ بالرَّحمن وهم أهلُ مكَّة سواءً في الثَّراء والرَّفاهيَة)، ويُرجِّحُ هذا الفهمَ للتَّعريف جعلُ متعلّق الفعل: ﴿يَكْفُرُ﴾ خصوصَ وصفِ الرَّحمن ﴿يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ فإنَّ مشركي مَكَّةَ أنكروا وصفَ الرَّحمن: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: 60]، وقد تكرَّر التَّورُّكُ عليهم بذلك في آيٍ كثيرة[2].

وقد يُقال بأنَّ (ال) هنا للاستغراق، فيُراد بالنّاس جميعُ البشر، ويكون المعنى: (ولولا أن يصيرَ النّاسُ كُلُّهم كُفّارًا لَخَصَصنا الكافرين بالمال والرَّفاهيَة وتَرَكنا المسلمين لِما ادَّخرنا لهم مِن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 26/ 7.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 204.

خيرات الآخرة، فيحسبُ ضعفاءُ العقول أنَّ للكفر أثرًا في حصول المال جَعَلَه اللهُ جزاءً لِمَن سَمّاهم بالكافرين، فيتَّبِعوا دينَ الكفر لِتَخَيُّلِهم الملازمةَ بين سعادة العيش وبين الكفر)، وعلى هذا تفسيرُ ابنِ عبّاسٍ والحسن وقتادة والسُّدِّيّ[1].

عِلَّةُ التَّعبير بـ﴿أُمَّةَ﴾:

قد تتسبَّب فتنةُ النَّعيم في الاجتماع على ما هو في غاية القُبح

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بلفظ الأمَّة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وهي دالَّةٌ على جماعةٍ يجمَعُهم أمرٌ ما كَدِينٍ واحِدٍ، أو زمانٍ واحِدٍ، أو مكانٍ واحِدٍ[2]، فعبَّر بالأمَّة للدَّلالة على ما يجمَعُهم؛ وهو هنا الكفر، أي: "لولا أن يصيروا كُلُّهم كُفّارًا؛ فيجتمعون على الكفر"[3]، ودلَّ على اجتماعهم على الكفر قولُه تعالى في الجواب: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ ففي التَّعبير بالأُمَّة تقبيحٌ لهم، وتشهيرٌ بهم، وتشنيعٌ عليهم؛ فهل الكفرُ يُجتمَعُ عليه؟!؛ ولكنَّ الافتتان بالمال والمتاع الوسيع مِنَ البيوت والسُّقُف والمعارج والسُّرُر وغير ذلك: يتسبَّبُ في حصول الاجتماع المقصود المُتعمَّد على الكفر.

معنى اللّام، ودلالةُ التَّعبير بها:

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بـ(اللّام) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ لربطِ الجواب بالشَّرط[4]، فهي تشيرُ إلى أنَّ ما بعدَها متعلِّقٌ بالجُملةِ التي قبلَها تعلُّقًا شرطيًّا؛ فيكون المعنى: (لو وقع الشَّرط لوَقَعَ الجوابُ حتمًا، أي: لصيَّرنا البتَّة)[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 204.
(2) الراغب، المفردات: (أمّ).
(3) الخازن، لباب التأويل: 4/ 109.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 84.
(5) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 300.

دلالةُ التَّعبير بالجعل مُسندًا إلى ضمير التَّعظيم:

في الجَعْلِ قوَّةُ القُدرةِ الإلهيَّةِ وسطوةُ حُكمِها النّافذ

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بـ(الجعل) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ للدَّلالة على التَّصيير، أي: لقدَّرنا وصيَّرنا أسبابَ الثَّراء متَّصلةً بالكُفر، ولكنَّ الله تعالى منَعَ ذلك التَّصيير[1].

وفي إسناد فعل (الجعل) إلى صيغة الجمع (ضمير التَّعظيم) دلالةٌ على تصيير ذلك بما للهِ تعالى مِن عظمةٍ؛ فلا أحَدَ يُعارِضُه، لِحَقارة الدُّنيا وبُغضِها عنده، فيكون الجوابُ واقِعًا حتمًا[2].

معنى اللّام، ودلالةُ التَّعبير بها:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجرِّ (اللّام) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ للتَّخصيص، أي: (لخصَصْنا الكافرين بسَعة الرِّزق)، فيكون المعنى: (لولا كراهةُ أنْ يفضي عمومُ النّاس إلى الكفر وانقراض الإيمان: لجعلنا المالَ لأهل الكفر خاصَّةً)[3].

دلالةُ التَّعبير بالموصول (مَنْ):

كمالُ قدرة الله وسَعَةُ خزائنه

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالاسم الموصول (مَنْ) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ لدلالته على العموم، أي: لَجعَلنا لكلِّ مَن يكفرُ بالرَّحمن سَعةَ الدُّنيا؛ ذكرًا كان أم أُنثى، واحدًا أم اثنين أم جماعة؛ وهذا دالٌّ على سَعة العطاء والنَّعيم، وعلى كمال قدرة الله تعالى؛ إذ لا يقدرُ على ذلك إلّا إلهٌ حقٌّ هو الله ﷻ.

دلالةُ التَّعبير بالكفر مادَّةً، وصيغةً:

إنكارُ صفة الرَّحمن كفرٌ متجدِّدٌ في المشركين

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالكفر في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ للدَّلالة على إنكارهم وصْفَ الرَّحمن عنِ الله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 205.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 424، والنخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 300.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 204، وينظر: الخفاجي، عنايه القاضي: 7/ 440.

تعالى[1]؛ بكُفرهم بالقرآنِ والرَّسولِ الذي جاءَهُم به؛ فهُم بذلك يُحاولونَ سَترَ ما مَنَّ اللهُ عليهم به مِن نِعَمٍ لا حَصْرَ لها، ونظمُ الكفر فعلًا مضارعًا يؤكِّدُ العمومَ في الموصولِ (مَنْ)؛ سواء بمراعاة تفاوتِ أزمنةِ مَن يكفر بالرَّحمن، أو بمُراعاةِ أهلِ زمانٍ واحدٍ، فإنَّ المضارَعة تُبرزُ التّعجُّب مِن هذا الكفر المتجدِّد؛ فهل يُكفَر بمثل الرَّحمن، فضلًا عن تجديدِ ذلك؟!

عِلَّةُ التَّعبير باسْم الرَّحمن دون سواه:

ما أقبحَ الكفرَ بالرَّحمن الذي وسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيء

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ باسم الرَّحمن في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ صفة الرَّحمة مقتضيةٌ لتناهي بسطِ النِّعم على الكافر؛ لولا العلَّةُ التي ذكرَها سبحانه مِنَ الرِّفق بالمؤمنين، وهي أنْ لا ينتشر الكفرُ بحُجَّة التَّوسعة على أهل الكفر توسعةً بالغةً[2].

معنى اللّام، ودلالةُ التَّعبير بها:

لولا الفتنةُ لاختصَّ الكفّارُ بزخارف الدُّنيا الفانية

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجرِّ (اللّام) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾؛ للاختصاص، أي: (لبيوتِ الكفّار خاصَّةً)[3]، وجعَلَها الطّيبيُّ دالَّةً على التَّعليل، أي: جعل السُّقفَ لأجل بيوتهم[4]، ومآلُ الوجهين واحدٌ؛ وعلى كون اللّام للاختصاص يكون فيه تمهيدٌ لإضافة البيوت إلى ضميرهم؛ فيكون في مجموع اللّام والإضافة تقريرٌ للمعنى تقريرًا يُشْبِهُ تقريرَه بأسلوب القصر.

الموقعُ النَّحويُّ لِشِبه الجملة، ودلالتُه:

زخرفةُ البيوت بالسُّقُف الفِضِّيَّة وغيرها هو من تمتيع أصحابِها الكافرين

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بِشِبه الجُملةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا﴾ بعد قوله: ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ على طريقة البدل، وهو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 205.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 425.
(3) القنوجي، فتح البيان: 12/ 351.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 135.

مِن بدلِ الاشتمال[1]؛ لأنَّ الجعل للبيوت هو جَعْلٌ لأصحابها، وإنَّما جَعَلَه عن طريق الإبدال للتَّنبيه على أنَّ المخصوصَ بالإنعام هم الكافرون؛ فقَدَّم ذِكْرَهم، ثمَّ بيَّن بالإبدال مكانَ ذلك الإنعام، وفي الإبدال أيضًا قَرْنٌ بين مَن يكفر بالرَّحمن وما حقَّرَه القرآن وهوَّنه؛ مِن هذا المتاع الذي منه البيوتُ وسُقفُها.

دلالةُ التَّعبير بـ(السُّقُف):

اتَّسع التَّرَفُ في البيت كلِّه حتَّى ظهر في السُّقُف

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالسُّقُف على وجه الخصوص في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾؛ وذلك لبيان شدَّة التَّرف؛ بحيث إنَّهم يجعلون سقوف البيوت مِنَ الفضَّة، أي: (بَسَطنا على الكافرين مِن الزَّخارف الدُّنيويَّة، ووفَّرناها عليهم؛ إلى حيث يتَّخذون لبُيوتِهم سُقُفًا مصنوعةً مُتَّخَذَةً مِن فِضَّةٍ)[2]، وإذا كان التَّرفُ حاصلًا في أعلى البيوت كان حاصلًا فيما دونه مِن بابٍ أولى.

التَّوجيه البلاغيُّ لقراءتَي لفظ: ﴿سُقُفًا﴾:

ظهورُ النَّعيم المفترض للكافرين وتعدُّدُه وتَنَوُّعُه

قرأ قولَه تعالى: ﴿سُقُفًا﴾ بفتح السِّين وإسكان القاف بالإفرادِ ﴿سَقْفًا﴾ - على إرادة الجنس -: ابنُ كثير وأبو عمرو وأبو جعفر، وقرأه الباقون بضَمِّ السِّين على الجمع[3]، وقراءةُ الإفراد تشيرُ إلى شِدَّة ظهور النَّعيم في هذه السُّقُف؛ فهو ظاهرٌ فيها على حدٍّ سواءٍ؛ وقراءةُ الجمعِ تشيرُ إلى تنوُّعِ هذه السُّقُفِ وتعدُّدِها؛ دلالةً على سَعةِ النَّعيم وكمالِه.

نكتةُ التَّقييد بشِبْه الجملة ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾:

من سَعة الإنعام وكماله جَعْلُ السُّقوفِ مُضيئةً بالفِضَّة

وصَفَ النَّظمُ الجليلُ السُّقُف بأنَّها مِن فِضَّةٍ في قوله جَلَّ شأنُه:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 631.
(2) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 300.
(3) الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 495.

﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾؛ للدَّلالة على أنَّها مُتَّخَذَةٌ من فِضَّةٍ[1]، وإنَّما وصَفَها بذلك لأنَّ السُّقُفَ أعلى البيت، وهو مَسقطُ النَّظر؛ فكأنَّه "خَصَّها لإفادتها النّور"[2]، والنّورُ أبهى حين يكون مِن أعلى.

سِرُّ التّعبيرِ بالمعارجِ مادَّةً، وصيغةً:

مِـنَ النَّـعيـمِ الخفيِّ العروجُ بالمصاعد

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالمعارج - وهي المصاعد - في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾؛ لدلالتها على العُلوِّ والسُّموِّ والارتقاء[3]؛ لأنَّ مَن يرقى بها كأنَّه يمشي مشية الأعرج[4]، وهذا تصويرٌ لحقيقة الصُّعود على السَّلالم أوِ المصاعد، وهذه المعارجُ مِن فضَّةٍ، لعطفها على الفضَّة[5]؛ وإنَّما جمعَها لأنَّ الكثرة أبلَغُ في سياق التَّنعيم؛ ووَجهُ النِّعمة فيها أنَّها تُسَهِّلُ الصُّعود، فهو مِنَ النَّعيم الخفيّ.

دلالةُ التَّعبير بـ(على):

الـرّاكـبُ عـلى الـشَّيء مُتمكِّنٌ منه

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجرِّ (على) - الدّالِّ على الاستعلاء - في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾؛ لأنَّ الارتقاءَ استعلاءٌ، فهم "يَعلونَ ويرتقونَ على ظُهورِها إلى المَعالي"[6]، فهو استعلاءٌ حقيقيٌّ، مع الدَّلالة على تمكُّنهم مِن تلك المعارج، وهذا أبلغُ في تقرير النَّعيم القويِّ.

عِلَّةُ تقديمِ شبْه الجملة على الفعل:

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ شِبْهَ الجُملَة على الفعل في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾، للعناية بالمُقدَّم والاهتمام به؛ لأنَّ مَوطِنَ الإنعام بالمعارج، لا بالظُّهور؛ فَقَدَّم ذِكْرَها تنبيهًا على ذلك؛ وتأخيرُ الفعل أنسَبُ للفاصلة.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 46.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 425.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرج).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 425.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 46.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 425.

دلالةُ التَّعبير بالظُّهور مادَّةً، وصيغةً:

اعتلاءُ البيوت، والظُّهورُ على سُطوحِها بالمعارج الفضِّيَّة

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالظُّهور في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم يرتقون عليها؛ فإنَّ الظُّهور هو البروز؛ والظُّهورُ على الشَّيء طلوعٌ عليه[1]، فهم يعلون السُّطوحَ والعلاليَ ويَظهَرون عليها[2]، فالظُّهور أوجَزُ وأسخَى معنًى؛ وفيه دلالةٌ على كمال النَّعيم مِنَ العُلوِّ والارتقاءِ إلى المعالي، وآثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل المضارع للدَّلالة على تجدُّدِ ذلك الفعل منهم؛ وهذا يدُلُّ على دوام النِّعمة واستمرارِها.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

النّاس والأُمم:

الأُمَّــةُ جماعةٌ خــاصَّــةٌ مِــنَ النّاس يجمعها أمرٌ ما

الأُمَّة: كلُّ جماعةٍ يجمعهم أمرٌ ما، إمّا دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: 38]، وقوله ﷻ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: 213]، أي: صنفًا واحدًا، وعلى طريقةٍ واحدةٍ في الضَّلال والكفر، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾، أي: على دينٍ مجتمعٍ[3]، أمّا النّاسُ فهو لفظٌ يُطلقُ على من وُجِد فيه معنَى الإنْسانيَّة، فيشمل كلَّ إنسان وعمومَ نوعهم؛ فهم الإنس خاصَّة، وهو اسمُ جَمعٍ لا واحدَ له مِن لفظه، وأصلُه عندهم أُناس؛ فلَمّا سُكِّنَتِ الهمزة أُدغمت اللّام، وقيل: النّاسُ لغةٌ مفردةٌ، فاشتقاقُه مِنَ النَّوَس، وهو الحركة؛ مِن ناس ينوس نوسًا إذا تحرَّكَ، والأناس لغةٌ أخرى[4]، وقد استعمل القرآنُ في الآية لفظَ الأمَّة؛ لأنَّ المرادَ به النّاسُ الذين يجتمعون على دين الشِّرك.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر).

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 46.

(3) الراغب، المفردات: (أم).

(4) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: (نوس)، ومعجم الفروق اللغوية الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري وجزءًا من كتاب السيد نور الدين الجزائري، ص: 529 - 530.

البيت والمسكن:

البيتُ هو المَأوَى والمآبُ ومَجْمَعُ الشَّملِ[1]، وهو مَأوَى الإنْسانِ باللَّيْلِ، وهو كُلُّ ما لَهُ جِدارٌ وسَقْفٌ، وإن لم يَكُن بِهِ ساكِنٌ[2]، والبيتُ: مكانٌ يُجعَلُ لهُ بِناءٌ وفُسطاطٌ يُحيطُ به؛ يُعَيِّنُ مكانَهُ؛ لِيَتَّخِذَهُ جاعِلُهُ مَقرًّا يأوي إليه، ويَستَكِنُّ به مِنَ الحَرِّ والقُرِّ[3]، أمّا المسكَنُ فأصْلُه مِن (سكن) وهو يَدُلُّ على خِلافِ الاِضْطِرابِ والحَرَكَةِ[4]، فالسُّكونُ ضدُّ الحركة[5]، والسَّكَنُ: اسْمٌ بِمَعْنَى المَسْكونِ، والسُّكنَى: مَصْدَرُ سَكَنَ فُلانٌ البَيْتَ إذا جَعَلَهُ مَقَرًّا لَهُ؛ وهوَ مُشْتَقٌّ مِنَ السُّكونِ، أي: القَرارِ[6]، فالمسكَنُ يتضمَّن السَّكينةَ والطُّمأنينة والاستقرار والرّاحة؛ وأمّا البيتُ فقد يتحقَّقُ فيه الأمنُ والاستقرارُ، وقد لا يكون ذلك متحقِّقًا فيه، فهو أعمُّ مِنَ المسكن مِن هذه الجهة؛ فعبَّر القرآنُ في الآية بالبيوت لأنَّها تدلُّ على ما لهُ جدارٌ وسَقْفٌ، فعبَّر بها لدلالتها على المأوى الذي لا يصلح إلّا بالسَّقف.

البيتُ هو المأوَى الذي يُؤوي النّاس، والمسكَنُ ما فيه راحةٌ واستقرارٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بيت).
(2) الخليل، العين: (بيت).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 237.
(4) الرّاغب، المفردات: (سكن).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (سكن).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 238.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والخمسون،
سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 53 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-644-66-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 53 : المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-644-66-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4811073 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"